القصص الديني
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

فتح أفريقية

عبد الحميد جودة السحار

١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا »

(قرآن كريم)

١

كان عمْـرُو بـنُ العاصِ واليًا على مِصـر ، فلمّا أصبحَ عثمانُ بنُ عفّانَ أميرًا للمؤمنين ، عـزل عمْرًا عن ولايةِ مِصر ، واستعمل عبد اللّه بن أبى سـرْح ، فغضِب عمرٌو غضبًا شديدا ، وحقَدَ على عثمـان ، حتّى إنّه طلّق أُختَه التى كان متزوِّجًا منها .

وذهب عمرُو بن العاص إلى المدينة ، وقـابل علىَّ ابنَ أبى طـالبٍ والزُّبيرَ بـنَ العوّامِ وطلحة ، وأخـذ يُخبرهم أنّ الناس فى مصرَ قد استاءوا من عثمـان ، لأنّه استعملَ عليهم عبدَ اللّهِ بـنَ أبى سَرْح ، ذلك الرّجلُ الذى ماتَ النّبىُّ وهـو عليـه غضبـان . وراح يذكر لهم عيوب عثمان .

وجاء مَوْسِمُ الحج ، فاندسَّ عمرٌو بين الناس ، واستمرَّ يُحدِّثُهم عن عثمان ، فيقول لهم إنه يُولّى أقاربَه على النّاس ، وإنه يُحبُّ بنى أميَّة ، لأنه منهمْ ، وإنَّه يُعطِيهم من بيتِ مال المسلمين .

وكان عمرٌو يحقِدُ على عثمانَ حِقْدًا شَدِيدا ، حتَّى إنه كان يُحرِّضُ عليه الراعِيَ فى غنمِه فى رأسِ الجبل .

٢

وكان محمّدُ بنُ أبى بكْر يُحبُّ عليَّ بنَ أبى طالب ، فقد تربّى محمَّدٌ فى بيتِ عليٍّ بعد أن تزوَّجَ من أمِّه ، فشبَّ وهو لا يعرفُ له أبًا غَيرَه . ولَمسَ عظمةَ عليٍّ وعلمَه وعدلَه فكان يعتقدُ أنَّ عليًّا أحقُّ بالخلافةِ من عثمان ، لذلك ساءه أن تخرجَ الخلافة

من يدِ عليّ ، واعتقد أنّ عثمانَ أخذَها بغيرِ حقّ . فـأحسَّ عـدم ميـل إلى عثمـان ، وأراد أن يُنـاوئَ عثمان ، فخرج من المدينةِ وذهب إلى مِصر .

وأسلم عبدُ اللّه بنُ سَبأ ، وكـان يهوديًّـا مـن أهـل صَنْعاء ، وكانت أمُّه سوداء ، فكان يُطلَقُ عليـه ابـن السَّوداء ، ولم يكن إسلامُه صادقا ، بل كان يُريد أن يبذرَ بذورَ الشِّقاق بين المسلمين ، ويحاولَ ضلالَتهم ، فبـدأ بالحجاز ، يُغَيِّرُ النَّـاسَ على أميرِهم عثمـان ، ولكنَّه لم يجدْ من يسمعُ له ، فذهب إلى البَصْرَة ، ثـم ذهب إلى الكوفة ، وهبط إلى الشّـام ، وهيَّـج النَّـاسَ على معاوية ، فأخرجه معاويةُ من الشّام ، فذهب إلى مِصر ، وتقابل مـع محمَّـد بـن أبـى بكـر فـى مصـر ، فاشترك معه فـى الدَّعوة لعليّ ، لا لأنَّـه كـان يحب عليًّا كما يُحبُّه محمّدُ بنُ أبى بكـر ، ولكـن لأنَّـه أرادَ أن يفرِّقَ كلمةَ المسلمين .

وكان محمَّدُ بنُ أبى حُذيفَةَ يتيما فى حجر عثمان ، فلما أصبح عثمانُ أميرًا للمؤمنين ، طمِع محمَّدٌ فى أن يوليِّهُ عثمانُ عملا ، ولكنَّ عثمانَ لم يستعملْه ، لأنَّه كان صغيرَ السِّنّ ، فدخل محمدُ بنُ أبى حُذيفَةَ على عثمان ، وطلب منه أن يوليِّهُ عملا ، فقال له عثمانُ إنَّه لا يصلُح أنْ يولِّيَهُ على المسلمين ، فحزن محمَّدٌ وقال لعثمان :

ـ فأْذَنْ لى فلأَخْرُج ، فلأَطْلُب مايقوتُنى .

فقال له عثمان :

ـ اذهبْ حيث شِئت .

وجهَّزه عثمان ، وأعطاه جملا ، وأعطاه ما يكفيه ، فذهب محمَّدُ بنُ أبى حذيفةَ إلى مِصر ، فاجتمع هناك محمَّدُ بنُ أبى بكر وعبدُ اللّه بن سَبَأٍ ومحمَّدُ بنُ أبى حُذَيْفَة ، فراحوا يتحدَّثون فى خلع عثمان .

أمر عثمانُ عبدَ اللّهِ بنَ أبى سَرْح أن يَخْرُجَ من مِصرَ لفتحِ إفريقيَّة ، وقال له :

ـ إن فتح اللّه عليك ، فلك خُمْسُ الخُمْس من الغنائم .

فجهَّز ابنُ أبى سرْحٍ جيشا ، وخرج من مصرَ فى عشرةِ آلاف مقاتل ، ليفتَح شمالَ إفريقيَّة . وكان الرُّومُ يحكُمُون شمالَ إفريقيَّة ، فتقابلتْ جيوشُ المسلمينَ وجيوشُ الرّوم ، ودارت معاركُ رهيبة ، فأيقن ابنُ أبى سرْحٍ أنّه لن يستطيعَ أن ينتصرَ على الرُّومِ فى إفريقيَّة ، فأرسلَ إلى أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفَّانَ يطلبُ منه مَدَدا ، فقام عثمانُ وطلبَ من النَّاس أن يخرُجوا ، لشدِّ أزرِ جيشِ المسلمين ، فتقدَّم عشرةُ آلاف ، فيهم جماعةٌ من الصحابة ، منهم ابنُ

عبّاس وابنُ عُمَرَ وابنُ عَمْرو وابنُ جعفر ، والحسَنُ والْحُسين ، وعبدُ اللّه بنُ الزُّبَيْر ، وخرج الجميعُ من مدينة الرَّسول ، وساروا حتى انضمُّوا لجيوشِ المسلمينَ فى إفريقيَّة .

والتقى الجيشان . فأمر جرجيرُ ملكُ الرُّوم جيشَه أن يلتفُّوا بالمسلمين ، فأحاطوا بهم كالهالَة ، ودار القِتال ، فأحسَّ المسلمونَ أنَّ أعداءَهم أقوياء ، وأخذ أبطالُ المسلمينَ يُدافعون عن أنفسهم ، ويهجمُونَ على الأعداء ، ليكسِروا حلْقَة الأعداء التى تريدُ أن تُطبقَ عليهم ، لتقضِيَ عليهم .

كان الموقفُ رهيبا لم يُرَ أشنعُ منه ، فالموتُ يُحيطُ بالمسلمينَ من كلِّ جانب ، وارتفعتِ الشمسُ حتى توسَّطتْ كبدَ السَّماء ، وصناديدُ المسلمينَ ثابتون ، واشتدَّتْ حرارةُ الشمس ، فراح الجيشان ينصرفان ، ليستعدَّا لاستئنافِ القِتال فى اليوم التّالى .

لاحظ ابنُ الزُّبير غيابَ ابن أبى سرْح عن القتال ، فتعجَّبَ من ذلك ، فما كان من أخلاق قُوّادهم أن يتخلَّفوا عن القتال ، بل كانوا دائما فى الصُّفوف الأولى ، فسأل عن سبب تغيُّبه ، فقِيل له :

ـ إنه سمِع منادِىَ جرجيرَ يقول : من قتلَ ابنَ أبى سرْح فله مائةُ ألفِ دينار ، وأُزوِّجُه ابنتى ، فخاف وتأخَّر عن شُهودِ القتال .

ذهب ابنُ الزُّبير إلى عبدِ اللّهِ بن أبى سَرْح ، ودخل عليه وقال له :

ـ لِمَ تتخلَّفُ عن القِتال ، أمن أجلِ ما نادى به جرجير ؟ فلتُنادِ أنتَ بأنَّ من قتل جرجيرَ أعطيتُه مائةَ ألفٍ ، وزوجتُه ابنتَه .

٤

اجتمع جيشُ الرُّومِ وجيشُ المسلمين ، وبرز مُنادى المسلمينَ ونادى :

- من قتل جرجير أعطاهُ الأميرُ مائةَ ألفٍ وزوَّجه ابنةَ جرجير .

خاف جرجير ، وأحسَّ أن جميعَ المسلمينَ سيطلبُونَه ويُحاولون قتلَه ، ليحصُلوا على ما وعدَهم به أميرُهم ، فتأخَّر ، وقد شعر بذُعْرٍ وقلقٍ ، واستمرَّتِ المعرَكة ، حتّى إذا ما ارتفعتِ الشَّمسُ إلى كبدِ السَّماء ، وارتفع صوتُ المؤذِّن بالظُّهر ، انصرف الجيشان ليستعِدُّوا لاستئنافِ القتال فى اليوم التالى .

دخل ابنُ الزُّبيرِ خيمتَه ، وراح يفكِّرُ فيما شهِدَ فى القتال ، فرأَى بفكره أن الجيشين يُحاربان حتّى الظهر ، ثم ينصرفان ، وخطرَ له خاطرٌ اطمأنَّ إليه ، فذهب إلى عبدِ اللّهِ بن أبى سرْحٍ يقصُّ عليه ما فكَّر فيه .

خلا ابنُ الزُّبيْر بعبدِ اللّه بن أبى سرْحٍ ، وقال له :

ـ إنَّ الحربَ تدورُ حتَّى الظهر ، ثم ينصرفُ الجيشان .

ـ نعم .

ـ أرى أن يُترَكَ أبطالُ المسلمينَ فى خيامِهِم متأهِّبين للحرب ، حتى إذا ما انصرف الرُّوم ، هجم عليهم المنتظرونَ فى الخِيام .

ـ نعمَ الرَّأى .

أُعجب ابنُ أبى سرْح بهذه الْخِطَّة ، فأمر أبطالَ جيشِهِ بالانتظارِ فى خيامِهم ، وعدمِ الاشتراكِ فى الحربِ التى تدورُ بين الجيشين من الصُّبحِ حتَّى الظُّهر ، والخروج عند سماع أذان الظهر ، ليحموا ظهرَ ابنِ الزُّبيرِ الذى سيتقدَّم لقتل جرجير .

وطلعت الشمس ، وخرج الجيشان للقتال ، وتبودلتِ الضَّرَباتُ والطَّعنات ، وتلاقتِ السُّيوف وتصافحتِ الأجسام ، وسالت الدّماء ، وغطَّتِ الجثَثُ المكان ، واقتربتِ الشَّمسُ من كَبِدِ السَّماء ،

فمشى التعبُ فى الأجسام ، وانتظرَ النّاسُ سماعَ الأذان ، فقد حنّت أجسامُهم للرّاحة ، وأذّن المؤذّنُ بالظُّهر ، فافترقَ المتحاربون ، وانصرف كلٌّ إلى عسكره ، وهمَّ الرُّومُ بالانصراف ، وعينُ ابنُ الزُّبيرِ عَلَى ملِكهِم جرجير ، فرآه من وراء الصُّفوفِ وهو راكبٌ على بغلتِه ، وجاريتان تُظلاَّنِه بريشِ الطواويس ، فالتفتَ ابنُ الزُّبير إلى أبطالِ المسلمين الذين كانوا مُستعدّينَ للقِتال ، والذين لم يشتركوا فى القِتال الذى كان دائرًا من الصُّبحِ حتّى الظهر ، وقال لهم :

ـ احموا لى ظهرى .

ثم سار بفرسِه إلى ملكِ الرُّوم ، وراح يخترقُ الصُّفوف ، والنّاس يتركونه ، فقد حسبُوا أنّه ذاهبٌ فى رسالةٍ إلى ملِكهم ، ولما اقترب منه بانَ الشرُّ فى وجهه ، فخاف الملكُ وهربَ على بغلتِه ، فأسرع

ابن الزُّبير خلفه ، وهجم فُرسانُ المسلمينَ ليحموا ظهرَ ابن الزُّبير .

ولحِق ابنُ الزبيرِ الملك ، فهجم عليه وطعنَه برُمحه ، ثم ضَربَه بسيفِهِ ، وأخذ رأسَه ، ونَصبه على الرُّمح ، وصاح :

ـ اللّه أكبر ... اللّه أكبر .

فهجم المسلمونَ على الأعداء ، فلما رأى البربرُ الذين فِي جيش الرُّوم ذلك ، خافوا وفرّوا ، والمسلمون من خلفِهم يقتلون ويأسِرون ، وانتهتِ المعركة ، وقد انتصر المسلمون على أعدائهم نصرًا مبينًا .

٥

أُخذتِ ابنةُ الملكِ سَبِيَّة ، فقدَّمها ابنُ أبى سَرْح إلى ابنِ الزُّبيرِ هديَّة ، وغنمَ المسلمونَ غنائمَ كثيرةً

وأموالا ، وقسَّم عبدُ اللّه بنُ أبى سرْحِ الغنائم ، فاحتجزَ الخُمسَ لأميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عفّان ، وقسَّم الباقى على المقاتلينَ بعد أن احتجز لنفسِه خُمسَ الْخُمس ، كما وعدَه أميرُ المؤمنين .

كان ما أخذَه ابنُ أبى سرْحٍ سلاحًا جديدًا فى أيدِى أعداء عثمان ، فراحوا يقولون إنَّ عثمانَ يُحابى أهلَه ، ويميلُ إليهم ، ويُعطيهم فوقَ ما يُعطى المسلمين .

وشاءَ ابنُ أبى سرْحٍ أن يُرسل إلى أميرِ المؤمنينَ عثمان ، يُخبره أنَّ المسلمينَ قد فتحوا إفريقيّة ، وأنّهم انتصروا على جيشِ الرُّوم ، فاختارَ ابنَ الزُّبير ، بطلَ المعركة ، ليذهبَ إلى عثمانَ بالفتحِ العظيم .

خرج ابنُ الزُّبير قاصدا المدينة ، وجعلَ يطوى الصَّحارى والوديان ، ويتمنّى أن يكون له جَناحان ليطيرَ إلى أميرِ المؤمنين ، ليُنبئه بالخبرِ العظيم ، ووصلَ

أخيرًا إلى المدينة فدخل على عُثمان ، وقد بان الفرحُ فى عينيه ، وأخذ يقصُّ على عثمانَ ما فعلَه المسلمون ، حتّى جاءهم النصر المُبين ، فالتفتَ عثمَانُ إليه وقال :

ـ إن استطعتَ أن تُؤدِّىَ هذا للنّاسِ فوق المِنبر .

أحب عثمانُ أن يسمعَ النّاسُ من ابن الزُّبيرِ ما فعلَه المسلمونَ فى إفريقيَّة ، فطلب من ابنِ الزُّبيرِ أن يُحَدِّثهم بما شهد ، فخرج ابنُ الزُّبير ، وكان شابًّا ، وصعِد المِنبر ، واجتمعَ الناسُ ليسمَعُوا ما يقولُ هذا الشابُّ الذى جاءَ بالبشارة . وراح عبدُ اللّه بنُ الزُّبير يقصُّ عليهم مارأى ، فاستولَى على الناس ، واستمرَّ فى إلقائه الهادئ ، والتفتَ فإذا به يرَى أباه الزُّبيرَ فى جملة من حضر ، فلما تبيَّن وجهَه كاد أن يتلعثم ، فقد كان يهابُه ويخشاه ، ولكنَّ الزُّبير ابتسمَ له ، وأشارَ إليه يحضُّه على استئنافِ ما كان فيه ،

فعاد إلى ابن الزُّبيرِ هدوءُه ، وقال وتدفّق ، فأحسَّ الزُّبيرُ رِضا ، وأخذ يستمعُ إلى ابنهِ وقد تفتّحت نفسُه ، وانشرحَ صدرُه ، وأحسَّ دَمعةَ فرحٍ تكاد تفرُّ من عينيه ، فمسحَها بظهرِ يدِه ، وأخذته النَّشْوَة ، وهزَّه الطَّرَب ، فأحسَّ رغبةً في ضمِّ ابنِه إلى صدره . وانتهى ابنُ الزُّبيرِ من قوله ، فنزل ، فأسرعَ إليه الزُّبير ، والتفتَ إليه في حَنان ، وقال له في إعجاب :

ـ واللهِ لكأنّي أسمعُ خُطبةَ أبي بكرٍ الصِّدّيق حين سمِعتُ خطبتَك يا بُنيّ .

وانصرف النّاس ، وهم مسرورون ، فقد فتح المسلمونَ إفريقيَّة ، وانتشرَ فيها الدِّينُ الإسلاميُّ الحنيف .